مقدمة

إن كل من يدرس تاريخ الفكر البشرى يلاحظ أن المسائل العقلية البحتة التى طُرحت للبحث العقلى فى العصور القديمة ، هى نفس المسائل التى طُرحت للبحث فى العصور الوسطى ، وهى نفس المسائل التى تُطرح الآن للبحث .

إن مسائل ما وراء الطبيعة ومسائل الأخلاق ما زالت كما كانت مجالاً للبحث..

إنها لم تتقدم خطوة نحو الحل ..

وما زال الخلاف فيها مستمرًا - بنفس الحِدَّة التى كانت فى القرون السابقة للميلاد -.

ولقد حاول القدماء - كما حاول المحدثون - اختراع مقياس فيصل للتفرقة بين الحق والباطل .

ومن أشهر المقاييس القديمة ما اخترعه أرسطو تحت عنوان «المنطق»، ولكن هذا المنطق لم يعصم فكرة المخترع نفسه من الضلال .

ولقد برع فى المنطق كثير من المفكرين القدماء ومن مفكرى الإسلام..

لقد برع فيه الكندى ، والفارابى ، وابن سينا..

بل لقد برع فيه الإمام الغزالى براعة كبرى..

وبرع فيه فلاسفة الإسلام المغربيون : ابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد ..

وهؤلاء جميعاً اختلفوا - اختلافاً جذريًا - فى آرائهم وفى نزعاتهم .

- فما هو الحق فى آراء هؤلاء ، وما هو الباطل ؟

إن «منطق أرسطو » وقف عاجزاً عجزاً تامًّا عن بيان الخطأ والصواب فى آراء هؤلاء المنطقيين .

- إلام يرجع هؤلاء للتثبُّت من آرائهم ؟

إنهم يرجعون إلى أدلة عقلية يسهل جدًّا هدمها عقليًّا ، كما يسهل جدًّا هدم الهدم .

لقد قام الإمام الغزالى بعمل عظيم ممثَّلاً فى كتابه «تهافت الفلاسفة» .. إنه فى هذا الكتاب : هَدَمَ آراء الفلاسفة رأياً رأياً ؛ فانهارت تحت قلمه ، وسقطت فى ضوء بيانه .

ولقد استغرق هدم الآراء ما يقرب من خمسة وتسعين فى المائة من الكتاب .

أما الخمسة فى المائة فقد أبان فيها الإمام الغزالى الأساس الذى قام عليه الكتاب، وهو بيان أن العقل الإنسانى لا يتأتى - فى عالم الإلهيات والأخلاق- إلا ظَنِّيَّات لا تصل إلى اليقين .

وذلك العقل غير مؤهَّل للبحث فيها ، وأصبحت بذلك مجالاً للبحث المستمر .

ومضى الزمن - فى طريقه - بعد الغزالى، حتى نشأ ابن رشد فأخذ يهدم آراء الإمام الغزالى فى نقد الفلاسفة ، وكان أبرع رد على ابن رشد أن عمله هذا إنما كان تأييداً للإمام الغزالى أكثر مما كان هدماً له .

وإن كل من يتأمل قليلاً فى الموضوع يرى أن رأى الإمام الغزالى هو أن العقل الذى يَبنى هو العقل الذى يَهدم .

إن ابن رشد - بعلمه - هَدَمَ نفسه ، وأيَّد موقف الإمام الغزالى ..

ويمضى الزمن ، فيجىء ديكارت..

ويزعم ديكارت أنه اخترع مقياساً للفصل بين الخطأ والصواب.

ويؤكد ديكارت أن الإنسان لو اتَّبع فى تفكيره المقياس الذى اخترعه خطوةً

خطوةً ؛ فإنه -لا مناص ـ سينتهى إلى الصواب ، وستكون ثمرة السير مع المنهج الديكارتى هى: اليقين .

وكان أول دليل واضح على خطأ ديكارت هو ظهور الخطأ البيِّن فى آراء ديكارت بالجانب المادى ، والتى هدمتها التجربة بصورة لا شك فيها .

أما آراؤه المعنوية فقد خالفه - فى الكثير منها - أساطين الفكر وعباقرة الفلسفة.

وكان منهج ديكارت أملاً عذباً ، ولكن البحث أظهر أنه سراب وليس بماء .

وانتهى الأمل فى منهج ديكارت كما انتهى الأمل فى منطق أرسطو ، وبقيت المسائل التى بُحثت قبل الميلاد كما كانت :

١ - ظنية .

٢ - مجالاً للبحث.

٣ - مختلفاً فيها .

٤ - الآراء فيها متعارضة من إنكار مطلق إلى إثبات مطلق .

٥ - عجز العقل عن الحل وعن الوصول إلى اليقين .

إن العقل له دوره الكبير الهائل فى الحضارة المادية ، بل إننا لا نعدو الصواب حينما نقول : إن الحضارة المادية بأكملها - من الإبرة إلى الصاروخ ، ومن وابور الغاز إلى البوتوجاز ، وإلى آلات الكهرباء - من عمل العقل .

وعلى العقل قامت الحضارة المادية من أساسها .

ولكنه - إذا استقرأنا تاريخ الفكر النظرى البحت - عجز عجزاً تامًّا عن دور مثمر .

إن هذا الذى نقرؤه فى تاريخ الفكر البشرى عن عجز العقل فى مجال العقائد، وفى مجال الأخلاق ، يدل فى صورة سافرة على أن كل من يأمل أن يصل إلى يقين عقلى فى ذلك ؛ فإنه مغرور .

ومن الغريب أنه برغم بداهة هذا العجز فإنه ما زالت البشرية تسير فى هذا الطريق المغلق ..

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[1].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[2].

- ولكن : كيف نصل إلى الحق فى هذه المجالات ؟

إن الله سبحانه وتعالى - وهو الحكيم الخبير - قد تفضَّل على عباده فهداهم إلى الحق فى هذه المجالات على ألسنة رسله الذين تتابعوا الواحد تلو الآخر ، هادين إلى الله ، مبشِّرين بالحق ، داعين إلى صراط الله ، حتى إذا انتهت حكمته سبحانه بإرسال محمد ﷺ خاتماً للنبيين ، وخاتماً للرسل؛ تكفَّل سبحانه بحفظ الرسالة ممثَّلة فى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[3].

وكأنه سبحانه وتعالى يقول :

لقد أرسلت لكم رسولاً دائماً ، هو القرآن الكريم الذى ضمنت حفظه ، ولستم فى حاجة إلى إرسالٍ بعده ، فرسالته مستمرة أبدية خالدة..

إنها الصراط المستقيم ..

وهى الهداية الدائمة ..

وهى بالأسلوب الإلهى ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ..

فاهتدوا بها ، وتمسَّكوا بالحق الذى ترشد إليه :

---

(١) سورة الحج : ٣، ٤ .

(٢) سورة الحج : ٨ ، ٩.

(٣) سورة الحجر : ٩.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[1].

وبعد.. فيقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

* * *

وهذا الكتاب إنما هو تفصيل وتوضيح لما سبق .

وما أظن أننى فرحت فى يوم من الأيام بظهور كتاب لى بمقدار ما فرحت حين ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى .

وذلك أنه يعبِّر عن منهجى الخاص فى حياتى الفكرية: منهج الاتِّباع. وأنا أسير فى هذا المنهج تبعاً لتوجيهات القرآن الكريم ، والسُّنَّة النبوية الشريفة .

وهذا الكتاب يشرح وجهة نظرى ، وهى وجهة نظر وجَّه إليها القرآن الكريم ، ووجَّهت إليها السُّنَّة النبوية الشريفة ، وسار على سُننها أئمتنا الهداة المهديون .

وهو كتاب أتقرب به إلى الله سبحانه ، وأرجوه سبحانه أن يهدى له وأن يهدى به . وصلَّى الله وسلَّم على الأسوة الحسنة والقدوة الربانية سيِّد ولد آدم ، الشفيع الذى نرجو شفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

* * *

(١) سورة لقمان : ٢٠ ، ٢١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠١ .